الأشاعرة

٢٠٤ — اشتدت حملة المعتزلة على الفقهاء والمحدثين ، ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور ، فكرههم الناس وصاحب ذكرهم البلاء والمحن وتأرثت العداوة ، حتى نسي الناس خيرهم ، فنسوا دفاعهم عن الإسلام وبلاءهم فيه ، وتصديهم للزنادقة وأهل الأهواء ، نسوا هذا كله ، ولم يذكروا لهم إلا إغراءهم الخلفاء بامتحان كل إمام تقي ، ومحدث مهدي .

ولما جاء المتوكل وأبعدهم عن حظيرته ، وأدنى خصومهم ، وفك قيود العلماء ، تجرد لمنازلتهم جماعة من الفقهاء — ومن نهجوا نهج السنة في دراسة العقائد ، فبعض العلماء الذين أجادوا طريقة المعتزلة في المجادلة لم يأخذوا بآرائهم فجادلوهم بلسان عضب ومن ورائهم العامة يؤيدونهم . وبعض الخاصة يرافقونهم والخلفاء يناصرونهم .

وظهر في آخر القرن الثالث رجلان امتازا بصدق البلاء: أحدهما أبو الحسن الأشعري ظهر بالبصرة ، والثاني أبو منصور الماتريدي ظهر بسمرقند ، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلاف بينهما في القرب من المعتزلة والبعد عنهم ، ولنتكلم على أبي الحسن الأشعري ، ثم نثني بالكلام على الماتريدي .

٢٠٥ — ولد الأشعري بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ وتوفي سنة ثلاثين وثلاثمائة ونيف بعد الهجرة ، تخرج على المعتزلة في علم الكلام وتتلمذ لشيخهم في عصره أبي علي الجبائي ، وكان لفصاحته ولسنه يتولى الجدل نائباً عن شيخه .

ولكن الأشعري وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة في تفكيرهم مع أنه تغذى من موائدهم ، ونال من ثمرات تفكيرهم ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين ، مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم .

مذهب الأشعرى ورده على المعتزلة :

٢٠٦ — عكف الأشعرى فى بيته مدة وازن فيها بين أدلة الفرقتين وانقدح له رأى بعد الموازنة ، فخرج إلى الناس وناداهم بالاجتماع إليه ، فرقى المنبر يوم الجمعة بالمسجد الجامع بالبصرة ، وقال :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان ابن فلان ؛ كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم . معاشر الناس ، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ، ولم يترجح عندى شىء على شىء ، فاستهديت الله تعالى فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته كتبى هذه وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا » وانخلع من ثوب كان عليه . ودفع للناس ما كتبه على طريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين .

وقد بين مذهبه ومآخذه على المعتزلة إجمالا فى مقدمة كتابه « الإبانة » وقد جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه .

« أما بعد فإن كثيراً من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد لرؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين ، فخالفوا رواية الصحابة عن نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم فى رؤيته بالأبصار ، وقد جاءت فى ذلك الروايات من الجهات المختلفة ، وتواترت الآثار وتتابعت الأخبار ، وأنكروا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردوا الرواية فى ذلك عن السلف المتقدمين ، وجحدوا عذاب القبر ، وأن الكفار فى قبورهم يعذبون ، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون ، ودانوا بخلق القرآن نظيراً لقول إخوانهم من المشركين الذين قالوا : « إن هذا إلا قول البشر » فزعموا أن القرآن كقول البشر ، وأثبتوا وأيقنوا أن العباد يخلقون الشر تظيراً لقول المجوس الذين يثبتون خالقين : أحدهما يخلق الخير والآخر يخلق الشر ، وزعموا أن الله عزوجل يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون من أن ماشاء الله

كان ، وما لايشاء لايكون ، ورداً لقول الله تعالى : « وما تشاءون الا أن يشاء الله » ولقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ولقوله تعالى : «فعال لما يريد» ولقوله تعالى مخبراً عن شعيب أنه قال : « وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا » ولذا سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مجوس هذه الأمة » ، لأنهم دانوا بديانات المجوس ، وضاهوا أقوالهم . وزعموا أن للشر والخير خالقين ، كما زعمت المجوس ، وأنه يكون من الشر ما لا يشاء الله كما قالت المجوس ، وزعموا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم رداً لقول الله تعالى: «قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ما شاء الله » وانحرافاً عن القرآن وعما أجمع عليه المسلمون. وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم، وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل، ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله بالقدرة عليه ، كما أثبت المجوس للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوه لله عز وجل ، فكانوا مجوس هذه الأمة إذ دانوا بديانة المجوس وتمسكوا بأقوالهم ، ومالوا على أضاليلهم، وقنطوا الناس من رحمة الله ، وآيسوهم من روحه ، وحكموا على العصاة بالنار والخلود خلافاً لقول الله تعالى ، « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وزعموا أن من دخل النار لم يخرج منها، خلافاً لما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن الله عز وجل يخرج من النار قوماً بعدما امتحشوا فيها ، وصاروا حمما » . ودفعوا أن يكون لله عز وجل وجه مع قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »وأنكروا أن يكون لله يدان مع قوله تعالى : « لما خلقت بيدى » وأنكروا أن يكون لله عين مع قوله تعالى : (تجرى بأعيننا) وقوله تعالى : (ولتصنع على عينى) ونفوا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا » وإنى أذكر ذلك إن شاء الله تعالى بابا بابا ، وبه المعونة والتأييد ، ومنه التوفيق والتسديد . . .

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذى تقولون وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له: قولنا الذى نقول وديانتنا التى ندين بها هى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ، وعمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذى

أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمه الله تعالى من إمام مقدم، وكبير مفهم، ورحمته على جميع أئمة المسلمين.

٢٠٧ — وبهذا يتبين أنه جاء لإحياء آراء الإمام أحمد فى نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه، ولذا يقول فى منهاج الإمام أحمد الذى اختاره: (وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لانرد من ذلك شيئاً، وأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، وأن الله استوى على عرشه، كما قال تعالى: (الرحمن على العرش استوى) وأن له تعالى وجها كما قال تعالى: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن له يداً كما قال تعالى: (بل يداه مبسوطتان) وأن له عيناً بلاكيف كما قال تعالى: (تجرى بأعيننا) وأن لله علماً كما قال تعالى: (أنزله بعلمه) ونثبت لله قوة كما قال تعالى: «أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة» ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية. ونقول إن كلامه غير مخلوق، ولم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن فيكون، وأنه لا يكون فى الأرض شىء شر ولا خير إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله، وأن أحداً لايستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ولا نستغنى عن الله، ولا نقدر على الخروج من علم الله، وأنه لاخالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله ومقدرة كما قال تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) وأن العباد لايقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال تعالى: (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون؟) وهذا فى كتاب الله كثير، وأن الله وفق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم ونظرلهم، ولو أصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين، كما قال تبارك وتعالى: «من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» وإنا نؤمن بقضائه وقدره خيره وشره، حلوه ومره، ونعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا. ونقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال بخلق القرآن كان كافراً به، وندين أن الله تعالى يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون، كما جاءت الروايات

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقول إن الكافرين عنه محجوبون ، كما قال الله عز وجل: « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون »ونرى ألا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنى والسرقة وشرب الخمر ، كما دانت بذلك الخوارج ، وزعموا أنهم بذلك كافرون ، ونقول أن من عمل كبيرة من الكبائر مستحلا لها كان كافراً إن كان غير معتقد تحريمها . ونقول إن الله يخرج من النار قوماً بعد ما امتحشوا بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونؤمن بعذاب القبر ، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . وندين بحب السلف الذين اختارهم لصحبة نبيه ، ونثنى عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم ، ونقول إن الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر رضى الله عنه وإن الله أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم عثمان نضر الله وجهه قتله قاتلوه ظلماً وعدوانا ، ثم على بن أبى طالب ، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافتهم خلافة النبوة ، ونشهد للعشرة المبشرين بالجنة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتولى سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونكف عما شجر بينهم ، وندين الله أن الأئمة الأربعة راشدون مهذبون فضلاء لايوازيهم فى الفضل غيرهم. ونصدق بجميع الروايات التى أثبتها أهل النقل المعروفون لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة ، وندين بترك الخروج عليهم بالسيف ، وترك القتال فى الفتنة ،ونقر بخروج الدجال ، ونقر بعذاب القبر ومنكر ونكير ،ونصدق بحديث المعراج ، ونصحح كثيراً من الرؤيا فى المنام ، ونرى الصدقة عن موتى المؤمنين والدعاء لهم ، ونؤمن أن الله ينفعهم ، ونقول أن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآياته . . . وقولنا فى أطفال المشركين : إن الله عز وجل يؤجج لهم ناراً فى الآخرة ثم يقول اقتحموها كما جاءت الرواية بذلك ،ونرى مفارقة كل داعية لفتنة ، ومجانبة أهل الأهواء . . ومنحتج لما ذكرناه من قولنا » .

٢٠٨ — نقلنا هذا الكلام بطوله ، ولأنه بتحريره بيّن خلاصة دقيقة لمذهبه وما اختاره ، وخلاصة ما تدل عليها :

(أ) أنه يجوز أن تكون للصالحين آية ، وهى التى اصطلح العلماء على تسميتها باسم الكرامة تمييزاً لها عن المعجزة ، وأنه يرى جواز الدعاء للميت والتصدق عليه ، وأنهما ينفعانه .

(ب) وأنه يرى أن يؤخذ بكل ما جاءت به السنة من عقائد لا فرق فى ذلك بين سنة متواترة وأخبار آحاد ، ويحتج لكل ما اشتملت عليه السنة من عقائد بكل وسائل الاحتجاج ، وقد أعلن اعتقاده لأمور تثبت أحاديث الآحاد.

(جـ) أنه أخذ بظواهر النصوص فى الآيات الموهمة للتشبيه من غير أن يقع فى التشبيه فى نظره ، فهو يعتقد أن لله وجهاً ، لا كوجه العبيد ، وأن لله يدا لا تشبه يد المخلوقات .

(د) وأنه يرى أن ما يعتقده هو رأى الإمام أحمد ، ويعتبره الإمام المقدم ، العالم المفهم .

٢٠٩ — ومع اتفاق المذهب الأشعرى ، مع آراء الفقهاء والمحدثين فيما شجر بينهم وبين المعتزلة من خلاف ، وأخذه بظواهر النصوص أخذاً مطلقا لا يعتمد فيه إلى أى تأويل — كان بعيداً عن أهلى الأهواء بعداً مطلقا ، وفى الحقيقة أن آراءه كانت وسطاً بين المغالين ، بين النفى والإثبات ،والمتجاذبين لأطراف النزاع من المعتزلة والحشوية والجبرية ، وإن الدارس لحياة الأشعرى يجد أن الذى يتفق مع اطلاعه هو أن يختار مذهباً وسطاً بعيداً عن المغالاة على أى شكل كانت المغالاة ، وكتابه (مقالات الإسلاميين) لهذه الآراء ، وهو قد اختار ذلك الوسط فى الآراء الفلسفية التى لها صلة بالقرآن ، وإن كان يتفق مع بعض الفقهاء فى كل أمر ورد فيه أثر أو قرآن ولا يصعب على المتقصى أن يثبت ذلك التوسط فى كل فكرة من أفكاره.

فرأيه فى الصفات وسط بين المعتزلة ومعهم الجهمية ،وبين الحشوية والمجسمة ، فالأولون نفوا الصفات التى وردت فى القرآن ، ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية ، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية ،وقالوا : ليست شيئاً غير الذات ، وقالوا أنها فى القرآن أسماء لله تعالى كالرحمن والرحيم — والحشوية و « المجسمة » شبهوا ذاته تعالى فى أوصافها بصفات الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيرا ، وجاء الأشعرى فأثبت الصفات التى وردت كلها فى القرآن والسنة ، وقرر أنها صفات تليق بذاته تعالى ، ولا تشبه صفات الحوادث التى تسمى باسمها ، فسمع الله تعالى ليس كسمع الحوادث ، وبصره ليس كبصرهم ، وكلامه ليس ككلامهم .

ورأيه فى قدرة الله تعالى وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتزلة ، فالمعتزلة قالوا إن العبد هو الذى يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه ،والجبرية قالوا إن الإنسان لا يستطيع إحداث شىء ولا كسب شىء بل هو كالريشة فى مهب الريح ، فقال الأشعرى إن الإنسان لا يستطيع إحداث شىء ولكن يقدر على الكسب(١).

وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة ، قال المعتزلة : الله سبحانه وتعالى لا يرى ، وأولوا النصوص القرآنية ولم يأخذوا بالأحاديث النبوية لأنها أخبار آحاد ، وقال المشبهة : إن الله يرى يوم القيامة مكيفاً محدوداً ، وسلك الأشعرى مسلكاً وسطاً فقال : يرى من غير حلول ولا حدود .

وبالنسبة للألفاظ التى وردت موهمة للتشبيه فى القرآن والحديث مثل « يد الله فوق أيديهم » قال المعتزلة : المراد سلطان الله تعالى فوقهم ، وقال الحشوية ، (أى العامة من المنتسبين للعلم) يده يد جارحة ،وقال الأشعرى يده يد تليق بذاته الكريمة ، وليست يد جارحة كأيدينا ، بل يده يد صفة كالسمع والبصر ، وهذا ما جاء فى كتاب الإبانة فإنه قد صرح بالتفويض بأن فوض اليد ، ونفى التشبيه ، ولكن يظهر أنه قد رجع عن هذا الرأى الذى أبداه متحمساً لمناقضة المعتزلة ، إذ جاء فى اللمع أن قرر تأويل اليد بالقدرة كما فعل المعتزلة وغيرهم .

وبالنسبة للقرآن قال المعتزلة : القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى ، وقال الحشوية : الحروف المقطعة والأجسام التى يكتب عليها والألوان التى يكتب بها ، وما بين الدفتين غير مخلوق(٢)فسلك الأشعرى طريقاً وسطا ، وقال: القرآن كلام الله غير مغير ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع ، فأما الحروف المقطعة والألوان والأجسام والأصوات فمخلوقات مخترعات.

وبالنسبة لمرتكب الكبيرة قال المعتزلة : إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته إذا لم يتب عن كبيرته لا يخرج من النار ، وقال المرجئة من غير أهل السنة : من أخلص لله سبحانه وتعالى وآمن به فلا تضره كبيرة مهما تكن ، فسلك الأشعرى

---

(١) تبين كذب المعتزلة فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى

(٢) الكتاب المذكور ص ١٥٠

طريقاً وسطا ، وقال : المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله الجنة .

وبالنسبة للشفاعة قال الإمامية إن للرسول شفاعة والأئمة مثلها ، وقال المعتزلة : لا شفاعة لأحد من العباد ، فسلك الأشعرى مسلكاً وسطا ، وقال إن للرسول صلوات الله وسلامه عليه شفاعة مقبولة فى المؤمنين المستحقين للعقوبة ، يشفع لهم بأمر الله وإذنه ولا يشفع إلا لمن ارتضى ، كسائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهكذا نراه قد سلك الطريق الأوسط لكى يبعد عن الانحراف ، وسنبين آراءه موازنة بغيرها عند الكلام على الماتريدية :

٢١٠ — وقد سلك الأشعرى فى الاستدلال على العقائد مسلك النقل ومسلك العقل ، فهو يثبت ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب ، ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صدق ما جاء فى القرآن والسنة عقلا بعد أن وجب التصديق بها كما هى نقلا ، فهو لايتخذ من العقل حاكماً على النصوص ليؤولها أو يمضى ظاهرها ، بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص يؤيدها .

وقد استعان فى سبيل ذلك بقضايا فلسفية ، ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة وسلكها المناطقة ، والسبب فى ساوكه ذلك المسلك العقلى :

(أ) أنه تخرج على المعتزلة ، وتربى على موائدهم الفكرية ، فنال من مشربهم وأخذ من منهلهم ، واختار طريقتهم فى الاستدلال لعقائد القرآن ، ولم يسلك طريقتهم فى فهم نصوص القرآن والحديث ، وقد سلك المعتزلة فى طريقتهم فى الاستدلال مسلك المناطقة والفلاسفة .

(ب) وأنه قد تصدى للرد على المعتزلة ومهاجمتهم ، فلا بد أن يلحن بمثل حجتهم ، وأن يتبع طريقتهم فى الاستدلال ليفاجئ عليهم ويقطع شبهاتهم ويفحمهم بما فى أيديهم ويرد حجتهم عليهم .

(جـ) وأنه قد تصدى للرد على الفلاسفة ، والقرامطة ، والباطنية وغيرهم

وكثير من هؤلاء لا يفحمه إلا الأقيسة المنطقية ، ومنهم فلاسفة لا يقطعهم إلا دليل العقل .

٢١١ — وفى الحق أنه قد ضعف شأن المعتزلة فى القرن الثالث والقرن الرابع الهجرى ، وقد كانوا متصدين للرد على أهل الأهواء ، وعلى الذين يهاجمون الإسلام ، وأباوا فى ذلك بلاء حسنا ، فلما ضعف شأنهم كان لابد أن يكون بين علماء السنة من يتولى ذلك العمل الكبير الخطير ، لأنه تلميذ المعتزلة ، وعرف بلاءهم فى هذا الأمر ، ولأنه صار إمام السنة المعروف فى ذلك العصر ، بعد أن زالت دولة المعتزلة .

وقد نال الأشعرى لذلك منزلة عظيمة وصار له أنصار كثيرون ، ولقى من الحكام تأييداً ونصرة ، فتعقب خصومه من المعتزلة وأهل الأهواء والكفار ، وبث أنصاره فى الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة .

٢١٢ — ولكن مع ذلك جاء من بعده علماء يخالفونه : فابن حزم يبعده من الجبرية ، لأن رأيه فى أفعال الإنسان لايثبت الاختيار للعبد فى نظر « ابن حزم » (١) ويبعده من المرجئة لرأيه فى مرتكب الكبيرة (٢) .

وقد تعقبه فى غير هاتين المسألتين ، ولكن مع ذلك قد ذاب أكثر مخالفيه فى لجة التاريخ الإسلامى ، واشتد ساعد أنصاره جيلا بعد جيل ، وقويت كلمتهم وحذوا حذوه ، وقاموا بما كان يقوم به من محاربة المعتزلة والملحدين ، ومنازلته لهم فى كل ميدان من ميادين القول ، وكل باب من أبواب الاعتقاد .

ومع هذا النفوذ الذى استمر فى صدر التاريخ كان من كبار رجال الإسلام من يخالفه وإن كانوا عدداً قليلا ، وجاء من الحنابلة من يخالفه كما سنبين عند الكلام على الفلسفيين .

---

(١) الجزء الثالث من الفصل ص ٣٢ .
(٢) الجزء الرابع من الفصل ص ٢٠٤ .

المذهب بعد الأشعرى

٢١٣ — كان لمذهب الأشعرى أنصار كثيرون كما بينا ، واعتبر فى العراق وما والاه من جهة الغرب مذهب أهل السنة والجماعة كما نوهنا ، ولقد جاء رجال ممتازون قووا الآراء التى انتهى إليها الأشعرى ، وقد تعصب بعضهم لرأى الأشعرى ، لا فى النتائج التى وصل إليها فقط ، بل تعصب له فى المقدمات التى ساقها الأشعرى ، وأوجب اتباعه فى المقدمة والنتيجة معاً ، وعلى رأس هذا الفريق :

أبو بكر الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ :

٢١٤ — وقد كان عالماً كبيراً نقح بحوث الأشعرى ، وتكلم فى مقدمات البراهين العقلية للتوحيد ، فتكلم فى الجوهر والعرض ، وأن العرض لايقوم بالعرض ، وأن العرض لايبقى زمانين إلى آخر ما هنالك ، ولم يقتصر فى مذهب الأشعرى على ما وصل إليه من نتائج كما أشرنا ، بل ذكر أنه لا يجوز الأخذ بغير ما أشار إليه من مقدمات لإثبات تلك النتائج ، فكان ذلك مغالاة فى الاتباع والتأييد والنصرة ، إذ أن المقدمات العقلية لم يجىء بها كتاب أو سنة ، وميادين العقل متسعة وأبوابه متفتحة ، وطرائقه مسلوكة ، وعسى أن يصل الناس إلى دلائل وبينات من قضايا العقول ونتائج التجارب والقرائح لم يتجه إليها الأشعرى ، وليس من شر فى الأخذ بها ما دامت لم تخالف ما وصل إليه من نتائج وما اهتدى إليه من ثمرات فكرية .

الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ :

٢١٥ — ولذلك جاء الغزالى من بعده ، فلم يسلك مسلك الباقلانى ولم يدع لمثل ما دعا إليه ، بل قرر أنه لا يلزم من مخالفة الباقلانى فى الاستدلال بطلان النتيجة ، وأن الدين خاطب العقول جميعاً ، وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاء بالكتاب والسنة ، وأن يقروه بما يشاءون من أدلة .

وفى الحقيقة أن الغزالى لم يكن تابعاً لأبى الحسن الأشعرى أو لأبى منصور الماتريدى ، بل إنه نظر نظرة حرة فاحصة ، لا نظرة تابع مقلد ، فوافقهما فى أكثر ما وصلا إليه ، وخالفهما فى بعض ما ارتأياه واجب الاتباع . ولذا رماه كثيرون من أنصار

الأشعرى بالكفر والزندقة ، واقرأ ما قاله فى رسالته (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، فقد جاء فيها :

« إنى رأيتك أيها الأخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر منقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحساد على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلفين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى : ولو فى قيد شعرة كفر ، ومباينته ، ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون — أيها الأخ المشفق المتعصب — على نفسك ، لا يضيق به صدرك ، وقل من غربك ، واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ؛ وقد قالوا أنه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا أنه أساطير الأولين ، خاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر ، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى ، أو مذهب المعتزلى ، أو مذهب الحنبلى أو غيره فاعلم أنه غر بليد ، قد قيده التقليد ، فهو أعمى من العميان فلا تضيع بإصلاحه الزمان ، وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بين نفسه ، وبين سائر المخالفين له فرقاً وفصلا ، ولعل صاحبك يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى ، ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر من الكفر الجلى ، فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفاً عليه حتى قضى بكفر الباقلانى ، إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى ، وزعم أنه ليس وصفاً لله تعالى زائداً على الذات ، ولم صار الباقلانى أولى بالكفر من الأشعرى بمخالفته (الباقلانى) ، ولماذا صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثانى ؟ إن كان ذلك من أجل السبق فى الزمان ، فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة ، فليكن الحق السابق عليه . أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم ، فبأى ميزان ومكيال قدرت درجات الفضل ، حتى لاح له أنه لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده ، فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ! ! وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا لتحقيق وراءه ، كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً أنهما متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف فى أن ذلك يرجع إلى الذات ، أو إلى وصف زائد عليه ، فخلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يشدد

القول على المعتزلة فى نفيه الصفات . وهو معترف بأن الله عالم محيط بجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات . وإنما يخالف (الأشعرى) فى أنه عالم قادر بالذات ، أو بصفة زائدة فما الفرق بين الخلافين ؟ » !

ونرى من هذه الرسالة كيف كان الغزالى ينظر إلى العقائد نظرة مجردة خالية من التقليد فلا يقلد إماماً ، ولا يتبع مذهباً من المذاهب المقررة فى العقائد ، وإن انتهى إلى قريب مما انتهى إليه الأشعرى .

٢١٦ — ولقد جاء بعد الغزالى أئمة كثيرون اعتنقوا مذهب الأشعرى فى نتائجه ، وزادوا على دلائله ، فلم يدعوا إلى التقيد بالمقدمات بل قيدوا أنفسهم فقط بالنتائج .

ومن هؤلاء البيضاوى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وكان مناظراً مجيداً ، وإماماً متعبداً ، وفقيهاً مدققاً ، وله فى علم العقائد كتاب الطوالع .

ومن هؤلاء السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ من الهجرة النبوية وكان فقيهاً حنفياً ، ملماً بالعلوم العقلية ألف كتباً انتفع الناس بها .

وقد جاء من بعد هؤلاء ومن قبلهم علماء أعلام وأئمة أفذاذ أحاطوا بالمعقول والمنقول ، وقد دونت دلائلهم ، وردودهم على المعتزلة وغيرهم ، وكان سجل ذلك كله ، علم الكلام الذى مازال يدرس إلى الآن .

مناظرة بين الأشعرى والجبائى

٢١٧ — ولنختم الكلام فى الأشاعرة ، بمناظرة أثرت ، كانت بين أبى الحسن الأشعرى ، وشيخه أبى على الجبائى المعتزلى ، وكان موضوع المناظرة فى وجوب الأصلح لله تعالى .

قال أبو الحسن الأشعرى : ما قولك فى ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، وصبى؟

قال الجبائى : المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الدركات(١) والصبى من أهل النجاة .

---

(١) الدرجة : المنزلة الرفيعة . والدركة : المنزلة التى يهوى فيها صاحبها الى النار .

قال الأشعرى : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات (أى بعد موته صبياً) هل يمكن ؟

قال الجبائى : لا ، بل يقال له إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها .

قال أبو الحسن : فإن قال التقصير ليس منى ، فلو أحييتنى كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن .

قال الجبائى : يقول الله : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك ، وأمتّاك قبل أن تنتهى إلى سن التكليف .

قال أبو الحسن : فلو قال الكافر : علمت حالى كما علمت حاله فهلا راعيت مصلحتى مثله ؟

فسكت الجبائى ولم يحر جواباً .

الماتريدية

٢١٨ — نسبة للماتريدى وهو « محمدبن محمد بن محمود » المعروف بأبى منصور الماتريدى ، ولد بماتريد — وهى محلة بسمرقند فيما وراء النهر — وقد ثبت أنه توفى سنة ٣٣٣ بعد الهجرة النبوية ، وقد تلقى العلم فى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجرى ، أى فى الوقت الذى كان المعتزلة فيه ينالون غضب الشعب واستنكاره جزاء ما أنزلوا بالفقهاء والمحدثين فى الثلث الأول من هذا القرن نفسه .

ولا يعرف على وجه اليقين مولده ، ولكن الظاهر أنه ولد حول منتصف القرن الثالث ، وقد ثبت قطعاً أنه تلقى علوم الفقه الحنفى والكلام على نصر بن يحيى البلخى المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

وقد كانت هذه البلاد مواطن المناظرات والمجادلات فى الفقه وأصوله ، وكانت تجرى المناظرات الفقهية بين الحنفية ، والشافعية . وكانت المآتم تحيا بالمناظرات فى المسجد .

ولما اشتدت الملحمة بين الفقهاء والمحدثين ، وبين المعتزلة كانت المناظرات تجرى فى علم الكلام ، كما كانت تجرى فى الفقه وأصوله ، وقد عاش الماتريدى فى تلك الحلبة التى كان السباق فيها لنتائج الفكر والعقل ، وكان حنفى المذهب ، فكانت له جولات فى الفقه وأصوله ، كما كانت له جولات فى أصول الدين ، وفيها ناظر الفقهاء والمحدثين ، ولكن بمنهاج غير منهاج الأشعرى ، وإن تلاقيا فى كثير من النتائج ، لا فى كلها ، على ما سنبين إن شاء الله تعالى .

٢١٩ — ولقد قرر الكثيرون من علماء الحنفية أن النتائج التى وصل إليها تتفق تمام الاتفاق مع ما قرره أبو حنيفة رضى الله عنه فى العقائد ، فقد كان رضى الله عنه له جولات فى أصول الدين ، وبلغ فى هذا العلم مبلغاً يشار إليه بالأصابع فيه ، كما حكى عنه أنه قال ذلك ، وكانت له رحلات إلى البصرة للمناظرة فى العقائد باغت نحو اثنتين وعشرين مرة كما يذكر الرواة ، وذلك كله قبل أن ينصرف انصرافاً كلياً إلى الدراسة